

# الفصل الأول

## الطفل في وجداننا

يعيش الإنسان الطفولة مرتين . مرة بكل مشاعره وأحاسيسه وحواسه حينما كان في المهد صبياً . ومرة حينما يكون أباً مسئولاً عن طفل .  
المرة الأولى بالمعايشة . والمرة الثانية بالمشاهدة . في المرة الأولى يعيشتها بكل عواطفه البكر وجوارحه الساذجة يتلقى أول تأثيرات العالم من حوله مثل تلك الزهرة الغضة التي تتفتح في راحة الصبح . وتتلقى أول نسوماته وأول دفقات أنواره .

وفي المرة الثانية يعيشتها بعقله الناضج وتجاربه الكثيرة . بحدوده الأمل في أن يصنع من طفله رجلاً صالحاً ينفع مجتمعه ووطنه . أن يدفع ابنه أن يحقق ما فشل هو في تحقيقه . فابنه استمرار له وتجسيد حي لكل ما يتمناه وكل ما يرجوه . فالطفل بمثابة مادة خام يستطيع أن يشكلها وينميها كما يشاء فهو يمتلك الغد . ويستطيع أن يكون له يد في تشكيل المستقبل وتحديد ملامحه حتى وإن غاب عن الوجود . وذلك من خلال هذا النبت الضعيف الذي في حاجة إلى دعائم يستند عليها حتى يشب وينمو ويكبر . من خلال هذا النبت -الطفل- يستطيع الأب أو من يتولى أمر الطفل عقلياً ونفسياً وأديبياً أن يدفع بالأمة إلى الأمام ويجعلها ترتقي درجات واسعة من التقدم والتطور . فكل ما نزرعه اليوم وبقدمه لأطفالنا اليوم سنحصده وجد آثاره غداً :

" إذا أردنا تهذيب المجتمع فلنهدب الطفل وإذا أردنا أن يعرف المجتمع معنى أداء الواجب فلنعود الطفل ذلك من الصغر فطفل اليوم رجل الغد والأمة مجموعة أفراد فإذا فكرنا في تربية الفرد تربية خلقية اجتماعية علمية صحية عقلية كان ذلك أدعى إلى رقي الأمة والنهوض بها " ١

لذلك فرأس مالنا الذي به نربح المستقبل أو نضمن أن يكون لنا يد في أن يسير في صالحنا هو الطفل .

### أهمية الطفل :

وأهمية الطفل لا تأتي فقط من كونه استمرارا أو امتدادا للأب فحسب أو أنه مجرد سلسلة تصل اللاحق بالسابق في حلقة الأجيال المتعاقبة المطردة ولكنه يناط به كل تغيير أو تطوير أو تقدم ، وما من أمة من الأمم عرفت للطفل تلك الأهمية ، وبوأنه تلك المكانة الهامة والخطيرة إلا ونجحت في أن تحقق كل ما تصبو إليه من أهداف وأمال وتمكنت في أن تمتلك مصيرها في يدها .

والأمة التي تهمل من شأن الطفل وتغفل عن أهميته وعن إمكاناته غير المحدودة التي تبرز في شبابه ورجولته هي أمة فقدت بعد النظر ، والسداد في الرأي وكل تقدم أو تطور تحرزه أو تحققه اليوم ناهب أدراج الرياح غداً وهي إذ تقيم بنائها - وهي تظن أنه راسع يتحدى ظروف الأيام - إنما هي تقيمه على شفا جرف هار لا بقاء له ، ذلك لأنها أهملت من شأن الطفل .

١ . الاتجاهات الحديثة في التربية - محمد عطية الإبراهيمي - صفحة ( ٩٦ ) .

## الشريعة الإسلامية والطفل :

والأمة الإسلامية من الأمم التي اهتمت بالطفل اهتماماً لا تجد له نظير بين الأمم . بل أكاد أقول أننا لا نجد أمة منحت مساحة واسعة من تفكيرها ووقتها للطفل منذ أن يولد إلى أن يبلغ الحلم مثل الأمة الإسلامية ، واهتمت وهو ما يزال جنيناً في رحم أمه ولا أبالغ إذا قلت أنها اهتمت به وهو ما يزال في أصلاب الرجال وترائب النساء فكل الأوامر والنواهي في الشريعة الإسلامية التي تهدف إلى حماية الأسرة من كل عوامل الهدم وصيانتها من التحلل والتفكك هدفها الأساسي هو الطفل .

فالأسرة بمثابة مؤسسة تقوم على دعامتين : الرجل والمرأة ، وهدف تلك المؤسسة هو إيجاد الطفل وكل ما يحكم تلك المؤسسة من قيم ومبادئ ينعكس أثره على الطفل ..... ولا توجد شريعة فوق الأرض اهتمت بالأسرة وبهاتين الدعامتين -الرجل والمرأة- مثل اهتمام الشريعة الإسلامية ، وحض الشارع كل من الأب والأم على تربية أطفالهما ، وبذل كل الجهد وكل الوقت في تلك التربية

### اهتمام الرسول بالطفل :

ولنا في رسول الله - ﷺ - أسوة حسنة . فمعلم تلك الأمة والمربي الأول لها نبه الأدهان ولعبت الأنظار إلى وحبوب الرعاية والاهتمام بالطفل وكان هذا شيئاً غريباً وعجيباً في نظر البعض . ذلك لأن العرب قديماً كان اهتمامهم بالطفل منعدماً ، ولا نجد فيما ورد إلينا من آثار أنهم أولو أي قدر من الرعاية أو الاهتمام بالطفل وإنما كان شأنه مهملاً ، ومكانته ضائعة ، وليس غريباً أن نجد تلك الأمة -قبل الإسلام- شأنها أيضاً مهملاً ومكانتها ضائعة بين أمم ذلك الزمان .

والدليل على تعجب البعض من اهتمام رسول الله بالطفل ، ما حدث حينما دخل (الأقرع بن حابس) على رسول الله ﷺ فوجده يقبل الحسن أو الحسين فتعجب عجباً شديداً من فعل رسول الله وقال وما زال التعجب والاندھاش يأخذان بلامح وجهه : يا رسول الله إن لي أحد عشر ولداً ما قبلت أحداً منهم قط!! فقال رسول الله ﷺ: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) .

(الأقرع بن حابس) مثار تعجبه أن الرسول يقبل أحد أحفاده وكان في طن الصحابي أن لا يجب على الأب أن يتلطف أو يتودد أو يتحبيب إلى بنيه . أو الجد إلى أحفاده ، فهذا في ظنه لا يليق بالرجل ، ولا يستحقه الطفل .

وكانت مناسبة لرسول الله أن يوجه الأنظار أن الأطفال هم أولى الناس بالاهتمام والرعاية ، وأن الله يحاسب الرجل على معاملته للطفل وكان درساً استوعبته الأمة من معلمها ومربيها العظيم .

وليس من أنبياء الله صلوات الله عليهم- من اتسع صدره للطفل مثل اتساع صدر رسول الله وليس منهم من أولى اهتماماً وحناً وهدياً وبكريماً للطفل مثل رسول الله . وهو لا يفعل ذلك إلا لكي يعلم الأمة ما كانت غافلة عنه وجعلها تهتم بمن كانت منصرته عنه ويرفق ويلين منها إلى من كانت قاسية وغليظة عليه .

فهذا الطفل الصغير الغض في أمس الحاجة إلى الحب واللين والتلطف هو في حاجة إلى أن يشعر أن من حوله يحبونه . وكما أنهم يقدمون له الغداء لينمو جسمه ويشدق هو في حاجة إلى الحب لكي تنمو نفسه وهي عامرة به فيعوض منه حين يكبر على من حوله وتكون كل معاملته لمن حوله يحكمها

الحب والمودة . ومن حرم من الحب صغيراً عسير عليه أن يقدمه لأحد وهو كبير  
فنفسه عاطلة منه ، ولم يذق طعم الحب وهو صغير فكيف يقدر قيمته وهو كبير؟!  
ولذا فقد كان رسول الله بمثابة نبع يفيض بالحب والتلطف بالأطفال :

« فقد كان التلطف بالصبيان من عادة رسول الله وكان يقدم من السفر  
فيتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه  
ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول  
بعضهم لبعض حملني رسول الله بين يديه وحملك أنت وراءه ويقول بعضهم أمر  
أصحابه أن يحملوك وراءهم وكان يأتي بالصبي الصغير ليدعوله بالبركة وليسميه  
فيأخذه فيضعه في حجره ، فربما بال الصبي فيصيح بعض من يراه فيقول :  
لا تزموا الصبي . فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، ويبلغ  
سرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده . »<sup>١</sup>

انظر اليوم للأب إذا كان يحمل ابنه ، وبال الابن على ثوب أبيه نجد الصباح  
والتأفف والغضب والغيط حتى أن الطفل يفرغ ، وربما انقطع بوله خوفاً ودلعاً  
فهو لا يفهم سبب هذا الصباح والثورة وهو يقضي حاجته الطبيعية ..... بينما  
رسول الله يترك الطفل حتى يقضي حاجته وينهى أهله أن يخيفوا الطفل  
أو يعزوه .

وانظر كيف يزرع الرسول الحب في نفوس الصغار ويجعله يأخذ مكانه  
في قلوبهم وكل منهم يفتخر أن الرسول حملة .... ولم لا والرسول يسي نفوساً  
ويعمر أرواحاً سبيله في ذلك الحب والعطف والحدب .

١ . الطفل في الشريعة الإسلامية - د. محمد بن أحمد الصالح - صفحة ( ٢٥٦ )

## الأدب النبوي والطفل :

لم يكن اهتمام رسول الله مقصوراً على نفسية الطفل فحسب بل كان اهتمامه شاملاً للطفل . فهو يخصص بأحد أحاديثه ويوجهها إلى غلام ..... رسول الله يحمل رسالة ، مكلف بأن يهدي أمة تشعبت بها سبل الضلال يجد من وقته واهتمامه وتفكيره ما يوجهه للغلام ..... عالماً أن ما يقوله سيستوعبه الغلام ، ويكون دستوراً وموجهاً لكل تصرفاته وهو كبير بل سيكون له النصب الأوفر في بناء شخصيته وتحديد معالمها ورسم ملامحها :

(( قال يحيى لعبد الله بن عباس رضي عنه : يا غلام أني أعلمك كلمات : أحفظ الله يحفظك . أحفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف . ))

### التوجيهات :

أهم شيء يجب أن يعرفه الطفل وهو في بداية حياته ..... أمرين ،

الأول أن كل عمل يعمل له مردوده إما له أو عليه .

الثاني : أن كل عمل يعمل في حياته . صغر ددا العمل أو كبر لابد أن يكون موجهاً إلى الله وليس لأحد من الناس مهما علت منزلته .

وكأنني برسول الله يقول لنا : أن هذا الحديث يجب أن يعرفه كل طفل .....

وتلك الكلمات يجب أن تملأ معانيها قلبه ، وتجري منه مجرى الدم في العروق .....

فهي تعلمه أن القوة لا تستمد إلا من الله وأن المقدر لكل ما يحدث في حياته هو الله وأن النافع هو الله والضرار هو الله . المعز هو الله والمذل هو الله .

الرسول يفسح مكاناً وعظيماً (لله) من إحساس وتفكير الغلام وانظر إلى كلمة (الله) كررها الرسول كم مرة ؟ ست مرات وتكرارها بهذا العدد له دالتان :

### الأولى: بلاغية على المستوى اللفظي:

فهي تفرغ أذنيه وهو مستمتع بالتكرار النغمي للكلمة... فالغلام يطيب له في هذا السن المبكرة أن يسمع كلمات وتكرر عليه، ليقوم هو الآخر بتكرارها وتصبح من الكلمات المألوفة المعروفة لديه والتي يبدأ بالبحث عن معناها ومدلولها من خلال سؤال من هم أكبر منه .

### الثانية: وحدانية على المستوى النفسي:

نفس وعقل الغلام كالحيز في حاجة أن يملأ أو أن يشغل وأن يعمر هذا الخلو، وما يشغل وجدان الغلام في هذا السن من العسير ومن الصعب محوود بعد ذلك... لأن النفس تستشرف وتطمح إلى ما يؤكد وجودها ويثبت ذاتيتها ولا شيء يؤكد وجود النفس الإنسانية مثل واهب الوجود وخالقه... لأن أي شيء غير الله تعمر النفس به ذاتها هو تشتت لها واضمحلال وتبديد وفناء يصير بها لا محالة إلى العدم ، والحديث منذ البداية يحدد للغلام ما الذي يجب أن يعمر به شعاب نفسه ، ما النور الذي يجب أن ينور به مسالك ودروب نفسه، ما الذي يجب أن تصمد إليه النفس حين تتحزب بها الأمور . فالله هو المنجأ ، هو الحصن وعلاقة الإنسان بالله سلباً وإيجاباً بيد الإنسان نفسه، فإن هو حفظ الله . فالله معه في كل آن وحين... وإذا سأل فلا أحد جدير بالسؤال غير الله لأنه هو السميع وإذا

استعنت فاستعن بالله لأنه هو المعين ولا معين غيره والقوة لا تلتبس من العباد والعزة لا تطلب من أحد غير الله.

حين يدرك الغلام كل تلك المعاني والدلالات المحيطة بكلمة (الله) سوف تتفجر في نفسه ينابيع الحب لله ويتذوق ويستشعر بكل خلايا نفسه معني هذا الحب الإلهي وتنمو نفسه وتفتتات بهذا الحب الذي تؤكد وتؤصله وتقويه كلمة الله.

### الرسول يؤكد علي أدب الطفل:

ورسول الله ينهي ويشدد في النهي . أن يقف الأب من ولده موقفا سلبيًا، بل لابد أن يكون له موقف إيجابي ولا يترك ابنه للأهواء لأنه لو تركه كفيل أن يفسد وتفسد كل مصادر الخير في نفسه.

عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده أن رسول الله قال : ( مانحل والد والدا خيرا من أدب حسن).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : ( ما ورت والدا ولدا خيرا من أدب حسن) وأخرج ابن ماجة عن عباس عن النبي ﷺ : (الزموا أولادكم وأحسنوا أديهم) .

الجامع بين الأحاديث الثلاثة هو كلمة (الأدب) وجاءت بعدها الصفة (حسن) والرسول لم يقل علموا أولادكم ولم يقل ربوهم وإنما قال أدبوهم لأن التعليم مقصور علي الناحية العقلية فحسب، والتربية مقصورة علي الناحية الجسدية

والنفسية، أما الأدب فلفظ جامع لكل ما يشمل عليه الإنسان من نوازع فهو يشمل تعهد الإنسان بصفة كلية ومن جميع نواحيه.

ومن خطورة وعظم شأن الأدب أنك لا تستطيع أن تعلم كما يجب أن يكون التعلم ولا تربي كما ينبغي أن تكون التربية إلا من خلال الأدب فهو قوام الأمرين من علم وتربية.

"وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمي العقول وتزكو فكما أن الحنة المدفونة في الأرض لا تقدر أن تخلع يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها وريعتها ونضرتها وثمارها إلا بمعونة الماء الذي يعود إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها"

وليس عجيبا أن يحدث الرسول الأباء علي تاديب أبنائهم لأن للأدب في حياة الرسول ﷺ مكانا عظيما، فهو القائل : ( أدبني ربي فأحسن تأديبي).  
وهنا أيضا تجد لفظ (الحسن) مع الأدب ، فهما - الأدب والحسن - في أحاديث رسول الله لا يفترقان.

١ . الألب الصغير والأدب الكبير - عبد الله بن المقفع - صنعة ( ١٢ )